نواجه الشبهة بالدليل
Refuting imposturous interpretations of religious texts

الجهاديون الرقميون

صراع الجماعات والدول داخل الفضاء السيبراني

نواجه الشبهة بالدليل
Refuting imposturous interpretations of religious texts

الجهاديون الرقميون

صراع الجماعات والدول داخل الفضاء السيبراني

جميع حقوق النشر والطبع والتوزيع محفوظة لـ
2020

الفهرس

المقدمة	01
أولًا: أزمة الأصالة: الجهاديون كبضاعة مقلدة	02
ثانيًا: الطريق نحو الإرهاب الرقمي	05
ثالثًا: تشكل الفضاء السيبراني وظهور الويكي - إرهاب	07
رابعًا: حدود الجهاد الرقمي والإجرائية الانتهازية	15
الخاتمة	20

المقدمة:

ما يصبو إليه هذا التقرير، هو إظهار الطابع الإجرامي التقليدي لما يُدعى عادة بالجهاد الرقمي، حيث ما فتئ هذا الأخير يكرر نفس الطرائق الإجرامية السائدة بين العصابات المختلفة، دون ابتكار أدوات أو وسائل جديدة، لذلك فإن استخدامات الجهاد الرقمي على المستوى السيبراني، هي نفسها استخدامات الجريمة السيبرانية ككل، التي بقدر ما تطور آلياتها، بقدر ما تواجَهُ بتحصينات، تزداد متانة، وكفاءة دفاعية يومًا بعد يوم, لكن ما يجعل الجهاد الرقمي أكثر خطورة هو مضمونه الذي يتصل بشكل مباشر بتراثٍ إسلامي تم السطو عليه من متطرفين عملوا على تحريفه، وتأويله بغرض استعماله كمادة استقطابية سهلة التداول بين المتابعين، الذين تسعى الجماعات الإرهابية إلى تحويلهم إلى تابعين على المستوى التنظيمي. فكيف عمل الإرهابيون الجهاديون على الاستلهام شبه الحرفي لطرائق الجريمة التقليدية؟ وما هي المحاكاة التاريخية التي ساعدتهم في الانخراط داخل عملية استنساخ آليات الجريمة السيبرانية في إطار ما يُدعى بالجهاد الرقمي؟ وما هي تجليات هذا الاستعمال وما حدوده وما مكمن قوته؟ إنها باختصار أسئلة هذا التقرير.

أولاً: أزمة الأصالة: الجهاديون كبضاعة مقلدة

رغم الهوس المرضي لدى الجهاديين بمختلف مشاربهم في تقديم أنفسهم في صورة النسخة الأكثر نقاءً للإسلام، والأكثر وفاءً لحرفية النص الديني، فإنهم لا يتوقفون عن تكرار واستعادة نفس طرائق من يدعونهم أعداء الله، وكفار العصر، بحيث نكاد نقول أن ليس من توجهٍ أقرب منهم هم أنفسهم إلى الانسياق مع مستجدات أشكال التواصل، والاحتجاج، والإجرام، فهم توابع في كل ما يقارفون من شناعات، لا يجتهدون قيد أُنملة فيما يفعلون، ولا يبتكرون شيئًا فيما يستعملون، عدا تلك المسحة الدينية السطحية، التي لا يتوقفون على نثرها فوق أعمالهم، ليخفوا الحقيقة الصادمة، التي ربما هم أنفسهم لا يجدون لها مسوغًا مقبولًا، والتي مفادها أن ما يدعونه جهادًا، وغنيمة، ودعوة لله، هو في جوهره وخلف كل التلوينات البلاغية التي يُغرقون بها خطابهم جريمة منظمة، وسطوًا مسلحًا، وبروباجندا متطرفة.

كما أن الأدوات التي يستعملونها، هي نفسها أدوات الفاشيون، والنازيون، وغيرهم، الذين قاموا قبلهم بأخذ الرهائن واستعمالهم كورقة للضغط، ومارسوا سرقة البنوك لتمويل العمليات، ونشر ثقافة الكراهية عبر استعمال الملفات الصوتية والفيديوهات، والخطابة التحريضية المتواصلة، والأعمال السرية، التي جربها قبلهم منتسبو الحركات الفوضوية في القرن التاسع عشر، الذين اعتبروا كل دولة مهما كان شكلها شرًا مطلقًا، يجب العمل بكل السبل على تدميرها، ومواجهة آليات قوتها العسكرية والأمنية بما اصطلحوا عليه صراحة بإستراتيجية الإرهاب، التي تقوم على إحداث قدر كبير من الأثر السيكولوجي غير المتناسب مع الحدث المادي نفسه للعملية، ومايحققونه من خلال اغتيال بعض الشخصيات المؤثرة، والتفجير في الأماكن العامة.

لهذا سيكون من المفيد جدًا، أن نتخلص من المشروع الذي يحاول الإرهابيون

الإسلاميون أن يقدموا أنفسهم عبره، بحيث يَظهروا كما لو أنهم امتداد لتقليد يعود إلى العصر النبوي الشريف، وأن مهمتهم دون باق البشرية، هي الاضطلاع بشرف مسؤوليةٍ يتم تناقلها عبر العصور، مثلما يدَّعون في إصرار مرضي غريب.

وعوضًا عن ذلك، علينا أن ننظر إليهم كمجرد ظاهرة إجرامية تكرر تقريبًا بشكل حرفي، ما فعلت المنظمات الإجرامية قبلهم، بل وأحيانًا في شراكة معهم؛ مادام أن العلاقة بين بعض التنظيمات الجهادية والشبكات الإجرامية في مجال بيع الأسلحة، وتجارة المخدرات، وغيرها من المحظورات، أصبحت غير قابلة للإنكار. سواء في أفغانستان، أو في الساحل الإفريقي.

ولهذا بدلًا من فهمهم تنظيميًا ووظيفيًا انطلاقًا من خلفية تاريخية أو إسلامية، سيكون من المهم تحييد أي بُعد إيديولوجي أو عقائدي في قراءة وتفكيك أسباب وجودهم أو نشاطهم، والتعاطي معهم على اعتبار أنهم عناصر متورطة في أنشطة ذات أبعاد إجرامية كالاتجار في المخدرات - مثالًا - وهو ما كشفته تقارير صادرة عن مكتب الأمم المتحدة المعني بالمخدرات والجريمة (UNODC) في هذا السياق، وهي رؤية (قد) تجنبنا الوقوع في شرك الإرهابي، الذي يحاول أن يخفي عنا، وعن نفسه أيضًا، طبيعته الإجرامية التافهة، التي لم تتوقف البشرية يومًا عن إفرازها كهامش مرضي، من ضمن أمراض اجتماعية أخرى.

إن هذا البعد الباثولوجي للإرهاب، هو ما قد يعيد الخطاب المتطرف إلى حجمه الحقيقي، وما يمكنه أن يفضح بُعْده الورمي الذي لا يعدو أن يكون جسمًا طفيليًا، يبني وجوده على حساب الكيانات الفعلية، من خلال التغذي على ما تُنْتِجُ، والتصرفِ حسب مِنوالها، رغم أنه لا يملك أيًا من مقومات الأعضاء الفعلية. هذا بالضبط ما يفسر أن كل الحركات الإرهابية، تعيش

على هامش القضايا، وعلى حسابها؛ فهي فعليًا لا تملك أي مشروع حضاريٍّ واقعي، ولهذا في كل مرة تجد الفرصة عبر أذرعها السياسية في الوصول إلى العمل السياسي للمجتمعات تُظْهِرُ عجزها المطلق، وفشلها الذريع في إيجاد الحل لأي من القضايا الحاسمة التي لطالما اعتمدتها في الترويج لنفسها.

ليس الإرهاب إذًا سوى ردة فعل إجرامية وعدمية على تجربة الآخرين، تتسم بالقصور السياسي، وبسطحية تطلعاتها الحضارية، إنها لا ترقى أبدًا لكي تصل إلى مستوى المشاريع الاجتماعية ذات البُعد الحضاري الكبير القابلة لأن تتنزل على أرض الواقع. فقد كانت ناسخة لما يدعى بحرب العصابات Guerrilla warfare، وناسخة لسياسة الفصائل السرية والخلايا، كما أنها ستصبح علّة مرضية للمجال الرقمي، الذي بقدر ما مَثَّل ثورةً فاصلة في تاريخ البشرية، بأن أضاف إلى المجالات التقليدية المعروفة :البرية والبحرية والجوية، مجالاً جديدًا يُدعى اليوم بالمجال السيبراني Cyberspace، والذي أصبح حيزًا خاضعًا للتدبير السيادي للدول، سواء في إطار السياسات الأمنية، أو الأطر القانونية والحقوقية للقضايا المرتبطة به، بقدر ما سيعاني هذا المجال الحيوي بظهور وَرَمٍ رقميٍّ، سيتولد عنه بشكل مفاجئ ما يُسمى بالجهاد الإلكتروني، والذي لا يعدو أن يكون تنويعة لغوية على كلمة الجريمة السيبرانية، و الذي يمثل تكرارًا لنفس العمليات المعهودة والمعروفة داخل أوساطها الإجرامية، القائمة على التحويلات المالية المشبوهة، واستعمال الوسائط الرقمية في نقل المعلومات الكاذبة، ومحاولات الاختراق، وغير ذلك مما يستعمل في سياق العصابات الإجرامية بأنواعها.

البعد العرضي للإرهاب

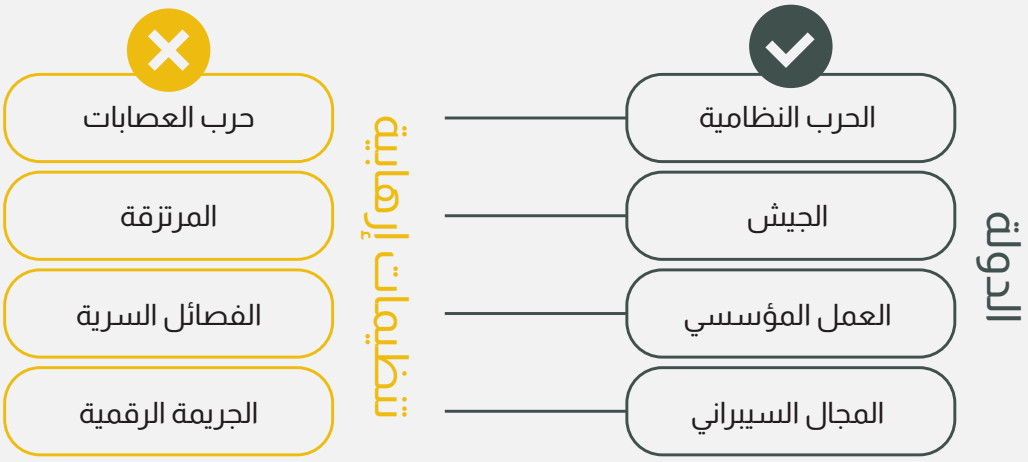

ثانيًا: الطريق نحو الإرهاب الرقمي:

لم يتضح في الواقع وجه الإرهاب الذي ينطلق من محتوى ديني-إسلامي، إلا بعد سنوات طويلة من استعماله في إطار حرب تتجاوز آفاقه المعرفية، وأهدافه المعلنة، وذلك على شكل فصائل مقاومة عقائدية كانت سائدة في سياق الحرب الباردة، التي جعلت العالم يعيش لعقود تحت هاجس خطر اندلاع حرب نووية، لا يمثل خطر التنظيمات الإرهابية داخلها سوى جزء يسير مما قد يواجهه العالم إذا ما وصل التوتر حد إندلاع الحرب النووية، التي كانت تضفي بظلال الخوف والترقب على البشرية جمعاء.

لقد مارس مايسمى بالجهاديين لوقت طويل حراكهم الاستقطابي، بالاعتماد على تسويق لأشكال النصوص الشرعية، لأن طابع التشدد في القراءات الحرفيَّة للنصوص الدينيّة الذي كان غالبًا عليهم، لم يتح لهم أن يستوعبوا بسرعة أهمية الأدوات التواصلية الجماهيرية الكبرى، ولا أن ينضبطوا لمقتضياتها، ومتطلباتها، فكانت بعض منابر خطب (الجمعة)، وكراسي دروس

بعض المساجد، والرسائل والصحف، والمصنفات الشرعية، هي في الغالب وسيلتهم الأساسية في إبلاغ رسائلهم لأتباعهم المقربين على وجه التخصيص. فلم يكن الخطاب الجهادي في هذه المرحلة، قد بلغ مستوى استيعاب مفهوم الحرب الإعلامية، التي تقتضي الوعي بمركزية القدرة على صناعة الرأي العام، من خلال التحكم في تمرير المعلومات، وهو الدافع الأساسي للانخراط فيما سيدعى بالجهاد الرقمي.

الإستراتيجية الجهادية الإعلامية:

كل شيء تغير مع أحداث 11 (سبتمبر) التي حققت أمرين مركزيين في تطور الجماعات الإرهابية:

أولًا: اكتشاف مدى أهمية وفعالية تحويل التكنولوجيا عن أهدافها الأولية نحو أهداف عملياتية إجرامية، إذ سينتقل الإرهاب من وضعية الخطر المحلي المرتبط بمناطق معارك معينة، إلى إمكانيةٍ واردةٍ ومفتوحةٍ باستمرار في كل بقاع العالم، وفي كل لحظة، و هذا البعد الاستمراري للخطر الإرهابي، سيجعل منه هاجسًا دوليًا، تتشاركه كل شعوب العالم.

ثانيًا: تحول الإرهاب الجهادي إلى مادة إعلامية تحقق نسبة متابعة كبرى، على الخصوص في بداية عصر الفضائيات.
هذه المرحلة تبدو أنها عتبة الانتقال مما يسمى جهاد المنابر، إلى جهاد المادة الإعلامية الإلكترونية والإعلان عنها، وتوفير المادة الكفيلة بخلق الحدث الجماهيري، فأصبحت المنتجات الإعلامية الجهادية أكثر تنوعًا، كما أن المرجعيات الفقهية المتطرفة الموجهة للاختيارات الجهادية، ستصبح أكثر مرونة في القبول باستعمال الصورة، والفيديو، والمؤثرات الصوتية، وهو ما

سيمثل الإرهاصات الأولى لدخول الجهاديين العصر الرقمي، والانخراط في الجهاد الإعلامي والمعلوماتي، إذ أن الدَّويَّ الإعلاميَّ الهائل الذي نتج عن هذه العمليات، نقل تنظيم القاعدة ولواحقه من متعاطفين، وتنظيمات شريكة أخرى، إلى مساحة جديدة لم يستفد منها أي تنظيم إرهابي من قبل، فمجرد ارتباط صورة زعيم التنظيم بمجريات السياسة الإعلامية، قد أعطت لأسماء التنظيم حجمًا إعلاميًا ما كان ليصبح ممكنًا إلا بوجود هذ الطفرة الرقمية، التي كانت الفضائيات منصتها الأولى.

كما مثلت على الخصوص مرحلة التسعينيات، بؤرة لإنتاج مادة إعلامية جماهيرية هائلة سهلت الدخول إلى العصر الرقمي، وعلى وجه التخصيص بعد ظهور تنظيمات عنيفة، اكتشفت قوة الأثر النفسي للمنتجات الإعلامية ذات المَشاهد العنيفة، والتي استُعْمِلت بشراهة كبيرة سواء من طرف مُنتجيها، كأتباع الإرهابي الزرقاوي بشكل خاص، أو من طرف مستهلكيها، الذين مثلوا الجيل الأول من رواد المنصات الإعلامية، هذه المواقع والإمكانات التواصلية التي وفرتها، كانت تعلن في صمت وربما دون أن ينتبه الكثيرون، عن نقلة عميقة في فهم المجال التواصلي، وعن إعادة ترتيب مفاهيم مركزية، مثل الموقع الجغرافي، وكلفة الاتصال، وزمانية تبادل المعلومات، إنها لحظة الدخول إلى عصر الويب.

ثالثًا: تشكّل الفضاء السيبراني وظهور الويكي- إرهاب:

إن ظهور مصطلح الفضاء السيبراني كجزء من كيان الدول، يقتضي الرعاية والحماية والتأطير، فهو في الواقع إيذان بتحول المكون اللامادي إلى أحد مقومات ثقل الدول على المستوى العسكري، والاقتصادي، والثقافي. فمثلًا، إذا كانت القوى العسكرية في السابق ترتبط بالعُدَّة المادية، والبشرية المتوافرة

لدى جيش ما، فإن هذا الأخير أصبح حاليًا مرتبطًا بشكل أكبر بمدى كفاءة شبكته التواصلية، والتشغيلية غير المادية، التي تتشكّل من برمجيات، ومن أنظمة رقمية على مختلفة المستويات، والتي تمثل في واقع الحال الجهاز العصبي لكيان القوة العسكرية بأكملها. وهذا ما سيجعل الهاجس الأمني حول هذه العُدَّة البرمجية الشبكية ذا أولوية إستراتيجية مطلقة. بل ويمكنه أن يبرر الدخول في مواجهة مع الأنظمة الأخرى، ولنا في عقوبات دولة ما تجاه شركات اتصالات مثالًا على هذه الحروب المرتبطة بمجالات لم يكن لها وجود في السابق، لأن المشكل في هذه الحالة لا يتعلق بالبضاعة نفسها، كأشياء مادية، بل في امتداداتها غير المادية وغير الآمنة، داخل الفضاء السيبراني للدول.

إن تشكل هذا المجال بتجلياته الشبكية /الأمنية، والشبكية/التواصلية هو ما سيوفر مُسببات وجود الجهاد الرقمي، وإمكانية حدوث عمليات إرهابية رقمية، ومن المهم في هذا الصدد أن نميّز بين الأمرين: فالجهاد الرقمي هو لحدود الساعة مجرد استعمال وظيفي للإمكانات الهائلة للويب في هذا الجيل الجديد من الإنترنت الذي خلق البعد التفاعلي داخل الأدوات الرقمية، مما وفَّر منصات ذات كفاءة عالية، وكُلْفة شبه مجانية لتمرير الرسائل، وتوفير الخلفية اللوجيستية للتنظيمات السرية. بينما العمليات الإرهابية الرقمية، هي توجيه ضربات قد تزاوج بين ما هو مادي، وغير مادي للفضاء السيبراني ذاته، في سبيل إحداث شلل كامل في مفاصل الدول، واختراق أسرارها الأمنية، وهو ما يمكن أن يمثل كارثة شبيهة بالحرب الشاملة، ولحسن حظنا في الوقت الراهن أن القيام بعمليات من هذا القبيل، يحتاج إمكانات بشرية وتقنية، يصعب توفرها لأي من التنظيمات القائمة.

نستطيع القول إذًا إن تشكل الفضاء السيبراني خلق الأداة. وإذا كان الهدف لا

يـزال حصينًـا جـدًا ضـد أي ضربـة إرهابيـة، فهـو مـع ذلـك، مـن حيـث بعـدُه الأداتي وفَّـر جغرافيـا افتراضيـةً جديـدة لتواجـد التنظيمـات السـرية بأشـكالها، والجهاديـة علـى وجـه الخصـوص، بـل إنـه خلـق أيضًـا هـذه المفارقـة الـتي تطـرح تحديًـا أمنيًـا كبـيرًا، في أن يكـون تنظيـم مـا سـرِّيًا علـى المسـتوى الجغـرافي المـادي، لكنـه يتحـرك تحـت الأضـواء السـاطعة علـى المسـتوى الافـتراضي، وهـي نفسـها المفارقـة الـتي تخـترق جانـب الحجـم في هـذه التنظيمـات، بحيـث أصبـح مـن الممكـن لجماعـة صغـيرة جـدًا داخـل هـذا الفضـاء، أن تحـدث أثـرًا تواصليًـا لا تنجـح في إحداثـه (أحيانًـا) المؤسسـات الإعلاميـة، هـذه المفارقـات الـتي تخـص الحجـم والتموضـع، جعلـت الجيـل الجديـد مـن الإرهابيـين علـى وعـي تـام بتملكـه لأدوات مـا كان لتنظيـم سـري أن يصـل إليهـا، لـولا سـهولة توزيـع هـذا المجـال، الـذي انتقـل في الواقـع مـن الفضـاء العسـكري، حيـث كانـت البدايـات الأولى للإنترنـت، قبـل أن يصبـح في متنـاول النـاس جميعًـا.

وهكـذا سـيتفرع عـن مصطلـح الفضـاء السـيبراني، الـذي جعـل مفهـوم الجهـاد الرقـمي ممكنًـا، مصطلـح آخـر هـو رديـف للمصطلحـين السـابقين، وهـو الدفـاع السـيبراني، حيـث أصبحـت الـدول تضـع في الاعتبـار هـذا الخطـر الجديـد في رسـم سياسـاتها الأمنيـة.

ولقـد كانـت فرنسـا مـن الـدول الأولى الـتي اتخـذت إجـراءات عمليـة سـريعة في إطـار سياسـتها الأمنيـة، اسـتجابة لإمكانيـة الخطـر السـيبرياني، حيـث أنشـأت الوكالـة الوطنيـة لأمـن الأنظمـة المعلوماتيـة ANSSI التابعـة للأمانـة العامـة للدفـاع والأمـن القـومي SGDSN وذلـك منـذ 2009. كماتعتـبر المملكـة العربيـة السـعودية أيضًـا مـن الـدول السـبَّاقة عربيًـا، نحـو الانتبـاه إلى أهميـة المجـال السـيبراني، حيـث أنشـأت الهيئـة الوطنيـة للأمـن السـيبراني في 2017، وتتمثـل مهـام مثـل هـذه الهيئـات في وضـع السياسـات الدفاعيـة للاسـتعمالات ذات الخطـر الأمـني علـى

البنية التحتية لشبكة الاتصال، وكذلك على امتداداتها البرمجية.

لقد ظهر المجال السيبراني إذًا، وحل الجيل الثاني من الويب، بكل ما يتضمن من إمكانات، وما يخفي من دهاليز في إطار ما يدعى بالإنترنت العميق، الذي يمثل قبوًا رقميًا مقلقًا، تتم عبره العمليات الإجرامية بمختلف صورها، فأين هو الإرهاب الجهادي الإسلاموي من هذا المجال؟ وكيف استطاع أن يجد له موقع قدمٍ داخله، على الأقل في الجانب الوظيفي لهذه الأدوات التفاعلية الرقمية؟

هناك من يذهب إلى أن النواة الأولى للجهاديين الرقميين -إن شئنا القول-، تشكلت بعد ظهور جيل من الجهاديين، وهؤلاء كانت علاقتهم بالإسلاموية، سواء من حيث المعطيات العقائدية، أو الجانب التنظيمي للاستقطاب ترتبط مباشرة بالتفاعل على الويب.

وقد استبدل بشكل ما هؤلاء الجهاديون الجُدد، نظرًا للبيئة التي نشأوا فيها، وكذلك للسياق الحقوقي والثقافي الذي كانوا يتحركون داخله، الهجرةَ المكانيةَ إلى أفغانستان، أو إلى العراق مَعْقِل القاعدة حينئذ، بهجرة افتراضية داخل الوسائط الرقمية. ما تولد عنه تحول عميق في كيفية الانتماء إلى التنظيم نفسه، يتجاوز الطابع المركزي لسلطة التنظيم في شكله التقليدي، نحو انتماء قائم على اللامركزية، وتحول التنظيم إلى دعوة عامة، وإلى منهجية مرجعية، لكن دون وجود ضرورة احتكاك مباشر مع التنظيم نفسه. لقد تعامل هذا الجيل من الجهاديين الجدد مع مسألة الانتماء إلى القاعدة حسب مقتضيات تقنيات العلاقة الهرمية في مجال التسويق الشبكي، بحيث أن مجموع مكونات الهرم تُخَدِّم بشكل أساسي على رأس الهرم، لكن دون وجود أي علاقة مباشرة معه. وهذا ما سمح بانتشار أتباع القاعدة، باستغناء تام عن الطرائق التقليدية في الانتماء قبل ظهور العالم الرقمي، التي كانت تقتضي هجرةً فعليةً

نحو المناطق التي تتواجد فيها القاعدة في عدد من الدول والمناطق، لأجل استكمال الصورة المثلى للانخراط داخل الجماعة الإرهابية.

هذه الصورة الهرمية للتنظيم ما كانت لتصبح ممكنة لولا الفضاء السيبراني، الذي وفر علاقة مختلفة تمامًا، وهذا ما نتج عنه فعالية مغايرة للعمل الإرهابي، الذي أصبح شبكيًا قبل أن يكون ميدانيًا، كما أنه وفر مهربًا حقيقيًا لتلوينات التنظيمات الإرهابية التي استفادت لوقت من الفراغ القانوني المؤطِّر لهذا المجال.

جهاديو الويكي
والقيادة الهرمية

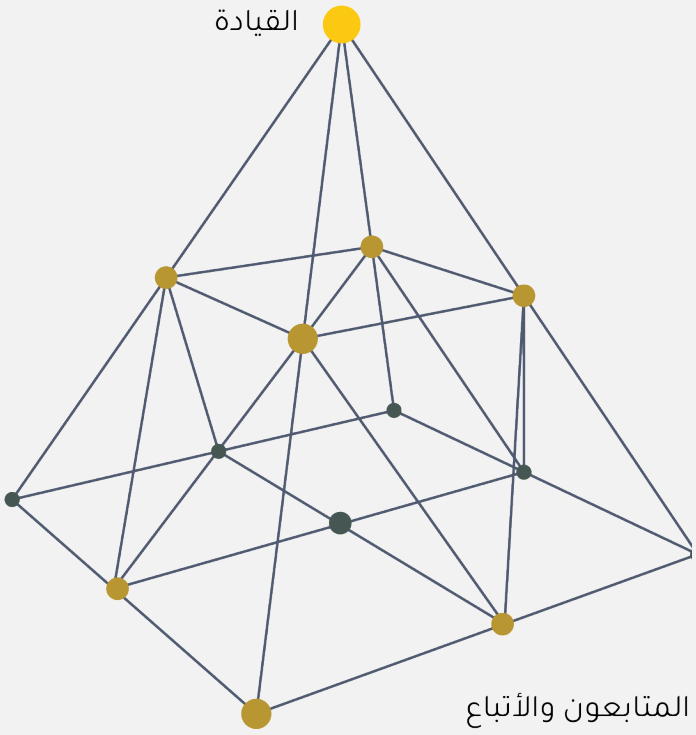

لقد تصرف جهاديو المرحلة الشبكية على نفس منوال أنظمة الشركات الكبرى العابرة للقارات، حيث تُعتبر الإدارة المركزية فيها مجرد نموذج مرجعي

عـام، تصـب في اتجاهـه كل العمليـات التسـويقية، لكـن كل جـزء مـن الشـبكة العامـة، عليـه أن يتصـرف في حـدود تفاعلاتـه، وإمكاناتـه ليخلـق مشـاركًة تتراكـمُ مـع غيرهـا، لكـي تعطـي في الأخـير حجمًـا هائـلًا، مقارنًـة بمـا تسـتطيع إدارة واحـدة أن تفعلـه.

كمـا أنهـم اسـتلهموا نفـس تقنيـات العمـل التشـاركي، لمـا يدعـى عـادة بالويكيـس wikis مثلمـا نجـد في مشـروعي ويكيبيديـا أو وكيليكـس وغيرهمـا، وهـي كلهـا تنظيمـات غـير حكوميـة، تسـتعمل التشـارك الهـرمي في سـبيل خدمـة قضيـة معينـة، ترتبـط في الوصـول إلى المعلومـة المسـتهدفه، ولهـذا حـين يسـتعمل مايسـمى الجهاديـين الجـدد هـذه الآليـات لأجـل خدمـة قضاياهـم الإيديولوجيـة، أو التخطيـط لإعـادة بنـاء مايسـمونه بالخلافـة، فإنهـم لا يبتدعـون شـيئًا في الواقـع، بقـدر مـا يقومـون بتحويـل وجهـةِ مـا اكتشـفها غيرهـم لخدمـة مصلحتهـم الخاصـة، وباختصـار إنهـم لـم يتجـاوزوا إضافـة الطابـع الإجـرامي والدمـوي، المحـاط بهالـة مـن القداسـة الزائفـة علـى ممارسـات كانـت سـائدة داخـل المجـال السـيبراني، مـن قبيـل القرصنـة، واسـتعمال الوسـوم، والترويـج للإثـارة المرئيـة، الـتي اسـتعملت صـور الجسـد لأجـل جلـب المشـاهدات، وهـو مـا عوضـه الجهاديـون بعـرض يرتبـط أيضًـا بصـور الجسـد، ولكـن هـذا المـرة علـى مسـتوى انتهـاك حرمـة الحيـاة، ونقـل تفاصيـل تلـك الجرائـم الدمويـة إلى المتابعـين بدلالتهـم الرقميـة، الـتي جـاءت لتسـند ولتعـوض أحيانًـا مركزيـة التابعـين السـائدة إبـان مرحلـة القتـل التقليـدي.

كمـا، تطـورت الأمـور كثـيرًا بعـد ظهـور داعـش، وتوفيرهـا لتمويـلات كـبرى لأجـل خـوض الحـرب النفسـية، الـتي تكَفَّـل بهـا في الغالـب محترفـون لمجـال العمـل الرقـمي، الذيـن أظهـروا احترافيـة عاليـة في تحويـل المعركـة المحـدودة جغرافيًـا، إلى كبسـولات رقميـة مُدوّيـة، اسـتطاعت أن تخلـق الحـدث في العالـم بأكملـه، وأن

تحقق مكاسب كبرى على مستوى الحرب السيكولوجية، ويمكن أن نعتبر الإخراج الدموي الرهيب لمذبحة (سبايكر) في (تكريت) 2014 الذي قام بها تنظيم داعش، والتي راح ضحيتها أكثر من ألفي طالب تمت تصفيتهم أمام الكاميرات، ثم حُوِّلت هذه الجرائم إلى وسيلة ضغط كبير على القوات العراقية، والترويج إلى نوع من الهيمنة، والسطوة غير الحقيقية لتنظيمٍ كان يستفيد فقط من فراغ أمني عابر.

لقد جرب الإرهابيون الجهاديون مدى بلاغة الصورة للترويج الاستقطابي، وذلك منذ فيديوهات الزرقاوي، لكن جيل الويكيس، نجح بشكل مختلف في التحويل الرقمي التفاعلي للحدث العابر، الذي يجعله يأخذ شكل صورة، تخلق منتدى، تتولد عنه مدونة، وهكذا دواليك... بحيث لا يجعلون أي جريمة تنتهي إلى مداها على أرض الميدان، بل يمنحونها حياة مستمرة داخل العالم الافتراضي، مما يعطيها تأثيرًا كبيرًا في عملية الاستقطاب.

وهكذا نجد أن الأغلبية الكبرى ممن هاجر نحو ما سُمِّي آنذاك دولة الخلافة، استُقْطِبَ من خلال الكبسولات الرقمية.

لقد انتهى جيل قرَّاء الكتب والرسائل، وتدارس الكراسات التي تكتب في السجون، على غرار تنظيم التكفير والهجرة، الذي تأثر أول الأمر بكتاب (معالم في الطريق) لسيد قطب، قبل أن يؤسس مواقف ورسائل وكتب أخرى، وانتهينا إلى الجيل الجهادي الرقمي الذي يُسْتقطَب بفيديوهات ترويجية، مثلما يحدث داخل الأسواق التجارية الإلكترونية، التي تتصيد المتابعين المستهلكين، عبر تسريب فيديوهات دعائية تخالط حياتهم الدائمة على منصات التواصل الاجتماعي، والتي تشتغل جميعها بنفس النظام الهرمي، ولا تختلف عن بعضها البعض إلا في تفاصيل بسيطة، ولهذا فقط حرصت داعش على النقل التصويري لعمليات دخول الموصل على تويتر وفيس بوك،

كما عمدت إلى تقديم تقرير سنوي يسجل عملياتها الإرهابية كما لو أنها شركة ترفع تقريرًا بأرباحها أمام النّاس، وهذا ماتعبرعنه منشورات داعش بعدد القتلى التي تنشرها داخل مواقع التواصل الاجتماعي، كأن تقول 1000 قتيل، 300 تفجير.

لقد تحولت التنظيمات الإرهابية إلى ظواهر رقمية أكثر من كونها ظواهر ميدانية، فمع نهاية الحروب الميدانية الطويلة النَفَس، مثلما عاشته القاعدة على الأرض الأفغانية، أو ما حاولتهُ لمدةٍ، تجربة ما يسمى بالخلافة لدى داعش على أرض العراق وسوريا، أصبح التركيز ينصب بشكل أكبر على خلق نوع من كرات الثلج الرقمية، أي تحويل العمليات المفردة والمنتشرة عبر العالم، إلى حدث رقمي ضخم، يتم تدويره بَعد إخراجه الفني، لأجل جعله وسيلةً للترويج الاستقطابي، الذي أضحى نوعًا من الإستراتيجية الاستقطابية، لرفع أسهم التنظيمات في المجال السيبراني، من خلال زيادة المتابعين followers الذين يمثلون ثروة حقيقية في المجال الافتراضي، واستثمارًا ذا مردودية عالية على مستوى إستراتيجيات تحقيق الأهداف.

الجهاد الرقمي
من التابع إلى المتابع

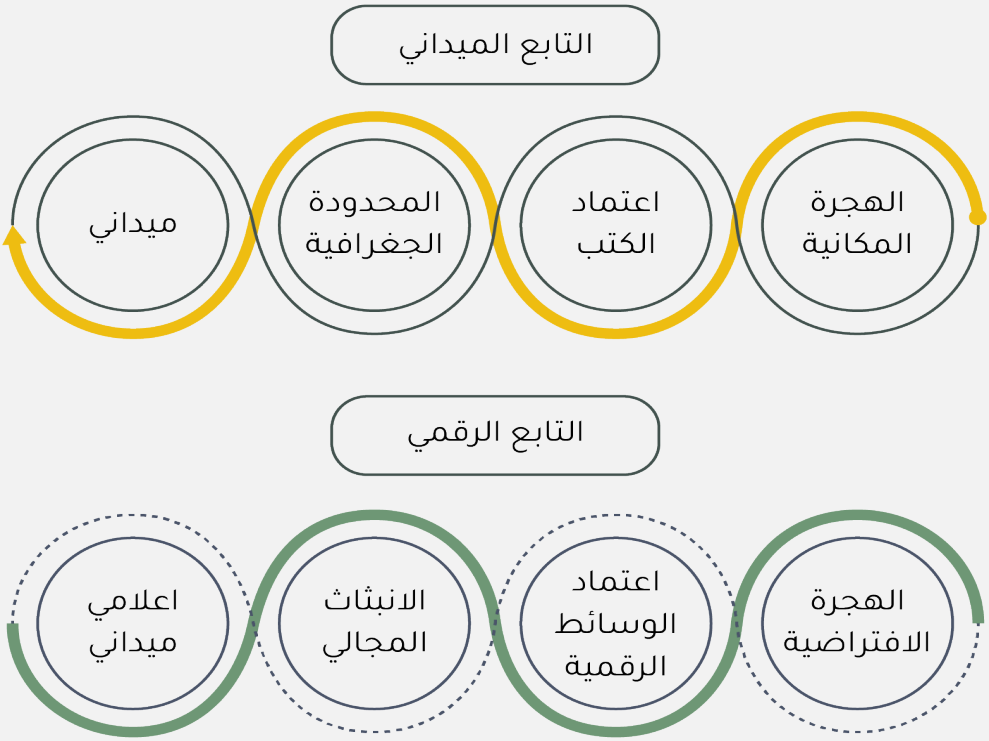

رابعًا: حدود الجهاد الرقمي والإجرائية الانتهازية:

كما سبق وأشرنا، إن الإرهاب الجهادي، هو امتداد بسيط للجريمة السيبرانية التي راكمت عبر سنين طويلة آليات عمل، وأهداف أصبحتْ ممكنةً فقط بظهور المجال السيبراني لكن لحسن الحظ إن إمكانات الجماعات الجهادية لم تصل بعد إلى القدرة على ممارسة العمليات الإرهابية الرقمية بالدلالة الدقيقة للكلمة، أي القدرة على تدمير أنظمة الأمن السيبراني، بما يتضمن ذلك من مخاطر كارثية على استقرار الأمم، التي أصبحت مرتهنة إلى حد كبير ببنيتها التحتية الرقمية. ولعل هذا الامتناع ناتج عن سببين مختلفين، أحدهما يتعلق بالإرهابيين أنفسهم، الذين لم يصلوا بعد رغم الفرقعات

الإعلامية إلى مستوى الكيانات التنظيمية ذات الخلفية المؤسساتية المستقرة، بحيث يمكنها أن تُنسق فيما بينها بشكل مُحْكَم، ومستمر كي تصل إلى مستوى القدرة على إحداث تعطيل أو تدمير للجانب البرمجي للشبكة، هذا، وإن كان لا شيء يمنع من قدرتهم على إحداث أضرار بالجانب المادي من هذه الشبكة، من خلال عمليات انتحارية مثلًا، تطال المكونات المكشوفة للشبكة؛ إلا أن مثل هذه الهجمات نفسها لا يمكن أن تُعَطِّل بشكل عميق عمل المجال السيبراني، فهي قد تحدث تشويشات، لكنها من الصعوبة بمكان أن تصل إلى الإعطاب الذي تقتضيه عملية كهذه، كي تبلغ إلى مواصفات عمل إرهابي رقمي. أما السبب الآخر، فيعود إلى جدية السياسات الأمنية السيبرانية، التي اضطلعت بها الدول في تحصين نفسها، وخلق مناعة للشبكة في صورتها الدولية، إذ إنَّ الإجراءات المتخذة في تمْنِيع مجالها، هي نفسها المتخذة إزاء الأهداف الحيوية الكبرى البالغة الجدية بالنسبة للدولة ككل، وهو ما مثل العامل الحاسم، في سد هذا الباب في وجه الخطر الإرهابي، على الأقل إلى حدود الساعة.

ما سبق يبرز كيف أن الجهاديين الإسلامويين، لم يتجاوزوا بعد الإستعمالات الإجرامية الاعتيادية المتخذة من طرف العصابات المنتشرة عبر العالم، من قبيل التمويلات السرية، التواصل العملياتي، الترويع عن بعد، إلى غير ذلك من الاستعمالات. كما أنهم يستعملون الشبكة على نفس منوال المشاريع النشطة في المجال الإيكولوجي، أو ذات الانتماءات المتطرفة داخل الإيديولوجيات أيًا كان تصنيفها، بحيث يحوِّلون الشبكة إلى منبرٍ لترويج أفكارهم، ومحاولةِ إنتاج خطاب مضاد إزاء خصومهم قائمٍ على نشر المعلومات الزائفة، واستعداءِ المتابعين، وشحنهم بمشاعر الكراهية، بالاستناد إلى منطق المؤامرة الكونية، التي تجد رواجًا كبيرًا داخل المجال الافتراضي.

إن نظرية المؤامرة التي تمثل ركنًا أساسيًا في ثقافة الويب على جميع المستويات

الجماهيرية، التي تمتد من الأمراض، إلى التغذية، إلى الكوارث الطبيعية، هي بالضبط التي يؤسس عليها الجهاديون الإسلامويين أطروحاتهم، مقدمين إياها كفتوحات غابت عن جميع المسلمين، وكأنهم كشفوا خيوطها، التي تتشابك لمحاربة الإسلام، ولتسهيل غلبة الدجال!. لنجد أن نفس الثيمة مشتركةً بين متطرفي اليمين المسيحي، وبين رجال دين يُحسبون على تيارات متشددة داخل الإسلام، ولنا شاهد في معركة هرمجدون التي يخصها التياران بفيديوهات، وتسجيلات صوتية، في إطار النهايات القِيَّامِيَّةِ للعالم، حسب المنظورات الدينية المتعددة، والتي نجدها رائجةً جدًا، كخلفيةٍ لدعم الحروب الانتحارية التي تدعوا لها هذه الجماعات. ولهذا يمكن أن نعتبر المنشورات التي أغرق بها الإرهابيون في مناطق الصراع في الشرق الأوسط منصات التواصل ، والمتعلقة بأشراط القيامة، وباكتمال هذه الشروط التي ستنتهي بالمعركة العظمى بين الشر والخير، قبل الانتقال إلى عالم الدينونة الذي سيعوض هذا العالم، هي المقابل الجهادي في أدبيات القياميين المختلفة للترويج له عبر المدونات، والمنصات المختلفة لأصحاب نظرية المؤامرة. من هنا لا يخلو الجهاد الرقمي أن يكون: إما أنه شبيه بتجار المخدرات والأسلحة والممنوعات في التمويلات السرية وسرقة المعلومات، أو أنه تكرار لخطابٍ استيهامي استُنفذ منذ أكثر من عقدين، ربما إبان الحرب الباردة، التي أفرزت خوفًا قياميًا من الحرب النووية الشاملة، حوَّلَهُ مجموعة من المتطرفين إلى تصور متكامل للعالم.

لهذا حينما نتحدث عن الإرهاب الرقمي، علينا أن نضع في الاعتبار أنه لا يصبح ذا خطورة إلا حينما يتحول إلى وسيلة، لإنزال الأفكار المتطرفة على أرض الواقع، لكنه في مجموعه لا يمثل أي استثناء داخل المجال السيبراني، فهو استعادة انتهازية لنفس المقولات المعهودة لدى المتطرفين عمومًا، مع جرعة زائدة من الدعوة الدموية، والانتحارية، نظرًا للشحنة الروحية الكبرى التي

يغلفون بها دعواتهم الإجرامية، من خلال ربطها بالنصوص المقدسة للقرآن والسنة، باعتبارهما مصدرين أساسيين للشرعية والمعقولية لما يقارب المليار مسلم، أي إن الخطر الذي يكتسيه الجهاد الرقمي، لا يرتبط بالكليشيهات المتداولة عبر مواقعه، الذي كما رأينا معهودة ومعروفة، لكن يتعلق باستعماله المغلوط للشرعية الدينية.

فحينما يأخذ الإرهابيون نفس الموضوعات ذات المتابعة المحدودة، ويُضْفون عليها طابعًا دينيًا ينهل مباشرة معقوليته من نصوص مشتركة بين كل مسلمي العالم، عبر التحايل على منطلقاته الشرعية، التي للأسف ليست خاضعة بعدُ بشكل صارم للمؤسسات الدينية، مما يسمح للجميع بأن يتحول إلى عالِم دين. هنا يبتدئ خطر الجهاد الرقمي، لأنه يستطيع عبر تلاعبه بالنصوص، أن يَنفتح على قدر كبير من المتابعين، ما يمنحه فرصة أكبر للاستقطاب، وبالتالي لتحويل المتابعين إلى أتباع؛ مما يسمح بتغذية الجماعة الإرهابية بموارد بشرية هائلة، يمكنها أن تتكاثر عبر العالم، بأقل كلفة ممكنة، دونما حاجة للاحتكاك المباشر، الذي يسهل في العادة عملية كشف الشبكات التنظيمية لهؤلاء الإرهابيين.

لهذا إذا ما أردنا أن نفهم الإرهاب الرقمي في صورته الوظيفية هذه، علينا أن نركز بشكل أكبر على مدى إجرائية استعمال الجماعات للأدوات الرقمية، ومدى انتهازيتهم القائمة على تشكيل مادة مركبة من مكونات عديدة: دينية، تجارية، سياسية، بل وجنسية أحيانًا ومن المهم أن نستحضر في هذا الصدد، مدى فاعلية استعمال المنتوج الجنسي في عمليات الاستقطاب، بداية من (الأيزيديات) اللواتي استُعملن بحقارة استثنائية، كبضاعة رخيصة تُعرض على الأتباع، وتفتح شهية المتعاطفين، بل إن بعض الدراسات أثبتت بعد متابعة طويلة لحراك التواصل المؤدي إلى التجنيد الجهادي، أن الجنس

لعب الدور الأساسي في هذا المجال.

إن هذا الجانب الإيروتيكي في عملية الاستقطاب الرقمي، دليل قاطع على أن الإرهابيين استعملوا كل المادة المتوافرة على الشبكة، وحولوها بخبرتهم الإجرائية إلى وسيلة للاستقطاب.

التطرف الرقمي

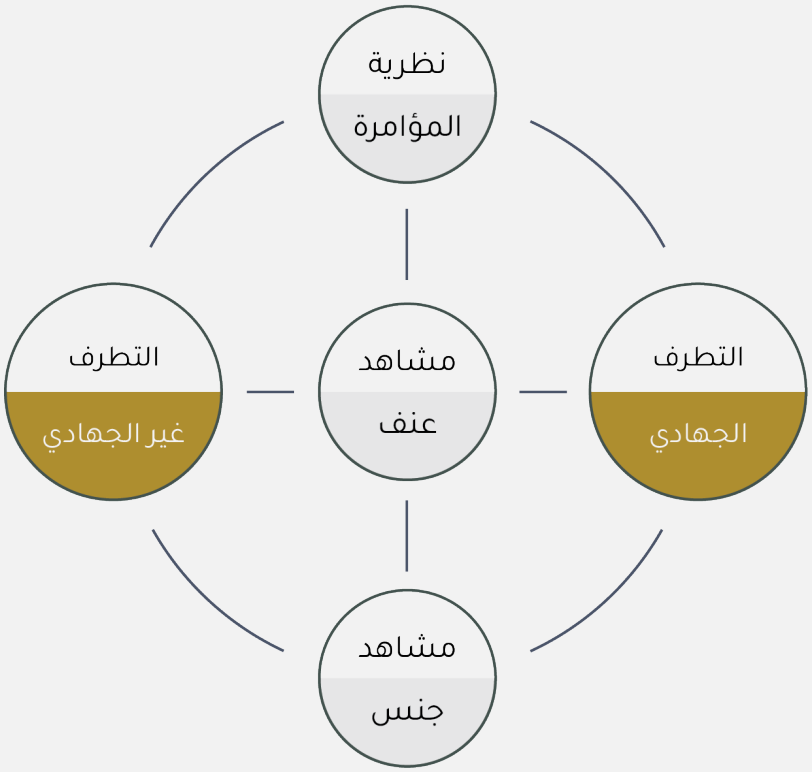

الخاتمة

كل ما سبق، يظهر كيف أن المجال السيبراني بكل ما وفره من إمكانات، جعل الحركات الإرهابية تحقق طفرة حقيقية على مستوى توظيف الأدوات التي أصبحت متاحة للجميع، وهي في استعمالها لها لا تحيد عما هو متداول في مجال الإجرام السيبراني الاعتيادي، فهي تمارس السرقة، وتهكير الحسابات البنكية، وترويج الممنوعات، وممارسة الحرب النفسية، عبر تضخيم آثار العمليات مهما كانت بسيطة، كما أنها تستعمل تقنيات الاحتيال في تحويل الأموال، واستعمال الأساليب التضليلية، التي أتقنها قبلهم تجار المخدرات، الذين كانوا في كل مرة يبتدعون وسيلة جديدة لإخفاء تعاملاتهم المادية، كلما ضاق الخناق الرقابي للدول عليهم.

ومن هنا ما يسمى الجهاد الرقمي، على الأقل من حيث وسائله لا يمثل أي تميز عما يعرفه المختصون في محاربة الجريمة، وهم يملكون الكثير من الأدوات المضادة، لتعطيل هذه الاستعمالات الجرائمية للأدوات الرقمية من طرف الجهاديين. بل يمكن القول إن الأهمية القصوى التي مُنحت للأمن السيبراني، سمحت بتوفير ميزانيات ضخمة لهذا المجال، مما سمح بتحصين الكثير من المجالات التي كانت قبل سنوات تعاني من فراغ كبير، سواء على مستوى الإطار القانوني، أو التحصينات الأمنية.

هذا ما سيصبح أكثر نجاعًا، بعد أن تمكن المختصون من الوعي بخطورة التداول المفتوح لوسائل التواصل الاجتماعي، والذي كان يستفيد من هامش كبير من الحماية الحقوقية، على اعتبار أنه سلوك يتم تحت ضمانات حرية التعبير، وحرية تبادل الآراء، وغيرها من الحقوق. غير أن المنقلبات الخطرة لمثل هذه الاستعمالات، دفعت بإعادة التفكير في هذه الضمانات الحقوقية، وإعادة تأويلها بما يتناسب مع السياسات الأمنية العامة، لأن الأصل في الحقوق هو أن تكون منسجمة مع الواجبات.

ولهذا فالمراجعات الحقوقية التي أصبحت متداولة في العالم، هي في الواقع يقظة متأخرة، لمجالٍ تُرك للاستغلال الانتهازي من طرف الإرهاب الرقمي، الذي لم يتوقف عن استنساخ تجارب الآخرين، لتحقيق غاياته الإجرامية الخاصة، لهذا فبقدر ما تتوفق الدول في تضييق الخناق على الجريمة السيبرانية، بقدر ما تكون قد مست أيضًا بخناق مايسمى الجهاد الرقمي. نفس الوضع تعلقًا بالتمويلات، فقد أصبح من شبه المستحيل أن تتم أي معاملة مالية على الإنترنت دون أن تترك أثرًا على الشبكة، وهو الأثر الذي يوفر إمكانية تَتَبُّعُ كل العمليات المالية إلى غاية بدايتها الأصلية، وهذا أيضًا يمثل انتصارًا للسياسات المضادة للجريمة الرقمية، والتي تجعل حياة الإرهابيين أكثر صعوبة مما مضى، فقد أصبحت التمويلات أكثر قابلية للانكشاف، على الخصوص إذا ما بلغت أرقامًا ضخمة، قادرة على توفير الرصيد المالي الخاص بالعمليات الكبرى. وهذا بالمناسبة يمس أيضًا العُملات الإلكترونية، التي مهما حاولت أن تتخلص من الارتباط بالمعاملات البنكية التقليدية، تجد نفسها في كل مرة تقع تحت الضبط الرقابي المالي، ولهذا فإن الكثير من المحاولات لاستعمال هذه العملة انتهت بالوقوع في قبضة السلطات المالية. هكذا إن الإرهاب الرقمي يكون دائمًا في قبضة سياسات مكافحة الجريمة السيبرانية التي تتطور باستمرار، لكن الواجهة التي تمنحه قوة استثنائية في الواقع، ليست العُدة الرقمية، أو البعد التكنولوجي، فكما رأينا إنه لم يقدم شيئًا يذكر في هذا المجال، بل إنه يظل إجرامًا بدائيًا مقارنة بما يمكن أن يحْدُث من مخاطر على المستوى السيبراني، بالخصوص فيما يتعلق بالقدرة على إنجاز عملية إرهابية رقمية تمس البنية التحتية السيبرانية نفسها، التي تظل بعيدة المنال عن الحركات الإرهابية الإسلاموية القائمة حاليًا.

إن خطر هذا الإرهاب الرقمي يكمن في المضمون الذي يتداوله، ما يمنحه

خلفية إيديولوجيّة، قادرة على أن تتسرب إلى كل هذه الكتلة البشرية. فقدرته على استعمال التراث الإسلامي لتبرير اختياراته العدمية الدموية، هو في ظننا ما يمثل تحد كبير، إذ خلف كل هذه التكنولوجيا المتطورة، وكل هذه الآليات الرقمية التي ستعرف قفزة كبرى مع ظهور الجيل الخامس من الإنترنت، هناك نصوص من القرون الوسطى ما تزال فاعلة في بناء المعقولية بالنسبة لملايين المسلمين، ولهذا إذا ما حجب عنا المظهر التكنولوجي، هذا الخطر الفكري، فسوف تؤول كل محاولاتنا في مواجهته إلى الفشل، لأن التكنولوجيا مستمرة في التطوّر، وأي حل ناجح يخص جيلًا من التكنولوجيا، قد يصبح غير مجد في التكنولوجيا اللاحقة. فنحن لن نعطل الانتشار الرقمي للجهاد في صورته السيبرانية، إلا إذا حرمناه من مادته الفكرية، من خلال اعتماد نفس الحوامل الرقمية، لحقن خطاب مُقْنِعٍ، يمكنه أن يفضح التلاعب الأساسي الذي يخدم الأجندة الإرهابية، والتي سرقت تراثًا كبيرًا، وذلك قبل أن تسطو على تكنولوجيا اعتيادية، تمارسها كل العصابات المنتشرة على الويب.

علينا إذًا أن نواجه السرقة الكبرى، قبل أن نتوجه إلى السرقة الثانية، فكل ما هو رقمي يصبح لاغيًا إذا ما توفقنا في تعطيل مادته وروحه، التي يمكن أن ندعوها بالبيانات الإرهابية، التي لا يوجد لحدود الساعة أي تكنولوجيا قادرة أن تتكفل وحدها بمقاومتها، فخلف كل هذه التنظيمات، والأحداث، والتكنولوجيات، هناك نصوص تتحدانا ينبغي أن ننتصر عليها فكريًا إذا ما أردنا فعلًا أن نعطل مشروع الإرهاب الرقمي.

نواجه الشبهة بالدليل

Refuting imposturous interpretations of religious texts